رسائل تلّغرافيّة

(١١)

وإنَّ اللَّهَ لَهَادِ الذين آمنوا إلى صِراطٍ مستقيم فما هي الهِداية؟

بَلَّغَهُ

ابن الكيال

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

● **مقدمة:**

الحمد للَّه نور السموات والأرض، يهدي لنوره من يشاء، العليم الحكيم، اللطيف الخبير، الودود، البرّ، الرؤوف، الرحمن الرحيم، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، أما بعد:

فلقد أكمل اللَّه لنا الدين وأتمّ علينا النعمة، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، ولقد جعل العزيز الحكيم الرحيم للهداية أسبابًا، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١]، ثم قال بعد هذه الآية بخمس آيات: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فللَّه الحجة البالغة، وقال في كتابه العزيز: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٦].

روى أبو نعيم في «حلية الأولياء (٥٧٩٤) عن الإمام عامر الشعبيّ التابعي في تفسير هذه الآية قال:

«بيان للناس من العمى، وهدًى من الضلالة، وموعظة من الجهل».

وقال رب العزّة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾، فلا بيان بعد هذه الآية الجامعة الكافية الشافية، ومثلها قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ولقد فصل أهل العلم من الصحابة ﷺ كل صغيرة وكبيرة في الدين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الناس هذا، تفصيلًا بيِّنًا، حتى كدتّ أن أكفَّ نفسي عن الدعوة إلى اللَّه على بصيرة، لاكتمال البيان من أزمان، ولكن منعني عن الكفِّ، الكفُّ -أعني- يدي والقلم لغلبة الجهل وانتشاره، وهذه الآفة الكبرى التي أهلكت الحرث والنسل، وأفسدتِ العباد والبلاد، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه، فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٣٠٣):

«أي: سهّلنا لفظه ويسّرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس، كما قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني: هوَّنّا قراءته، وقال السدي: يسّرنا تلاوته على الألسن، وقال الضحاك عن ابن عباس: لولا أن اللَّه يسّره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام اللَّه ﷻ.

وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ أي: فهل مِنْ متذكر بهذا القرآن الذي قد يسّر اللَّه حفظه ومعناه؟

وقال محمد بن كعب القرظيّ: فهل من منزجر عن المعاصي؟

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا . . . . عن ابن شوْذب عن مطر الورَّاق في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هل من طالب علم فيُعان عليه؟

وكذا علّقه البخاري بصيغة الجزم عن مطر الورّاق». اهـ

قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

- **معنى الهداية لُغةً وشرعًا:**

قال الحافظ ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٢٨٣) في معنى هذه الآية:

«أي: في الدنيا والآخرة، فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات». اهـ

وقال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٦٢):

«قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: يثبّتهم على الهداية». اهـ

وقال الشوكاني في تفسيره المسمّى بـ«فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير» (٣/ ١٣٠):

«قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في أمور دينهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: طريق واضح لا عوج به». اهـ

وقال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٠٢):

«وإن اللَّهَ لمرشد الذين آمنوا ورسولِه إلى الحق القاصد والحق الواضح». اهـ

وقال القرطبي في «جامعه» (١/ ١٤٥-١٤٦) عند قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]:

«الهدى في كلام العرب: معناه الرشد والبيان؛ أي: فيه -يعني في القرآن- كشف لأهل المعرفة، ورشد وزيادة بيان وهدًى.

الثانية: الهُدَى هَدْيَان: هدى دِلالة، وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه، وتفرد سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق، فقال لنبيّه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، فالهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، وقوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [يونس: ٢٥].

والهدى: الاهتداء، ومعناه راجع إلى معنى الإرشاد كيفما تصرّفت.

قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها، ومن ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ﴾ [محمد: ٤-٥]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] معناه: فاسلكوهم إليها». اهـ

وذكر القرطبي في «جامعه» (١/ ١٣٥) عند قوله من سورة الفاتحة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] قال:

«اهدنا دعاء رغبة من المربوب إلى الرب، والمعنى: دلنا على الصراط المسقيم وأرشدنا إليه، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أُنسك وقُرْبِكَ، . . . وقيل: المعنى مِلْ بقلوبنا إلى الحق». اهـ

- **بيان ذكر أنواع الهداية:**

وقال الراغب الأصفهاني في «المفردات في غريب القرآن» (ص٥٣٩-٥٤٢) مختصرًا:

«هدى: الهداية دَلالة بلطف ومِنْهُ الهَدِيَّة.

وهداية اللَّه تعالى للإنسان على أربعة أوجه:

الأول: الهداية التي عمَّ جِنْسُهَا كلَّ مكلف، من العقل والفطنة والمعارف الضرورية، التي أعم منها كل شيء بقَدَرٍ فيه حسب احتماله، كما قال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائِهِ إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤].

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المَعْنِيُّ بقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ [التغابن: ١١]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ [يونس: ٩]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [البقرة: ٢١٣].

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة، المَعْنِيُّ بقوله: ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ [محمد: ٥]، ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

وهذه الهدايات الأربع مُرَتَّبة، فإنَ من لم تحصل له الأولى، لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة.

والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدًا إلا بالدعاء وتعريف الطُّرُق دون سائر أنواع الهدايات، وإلى الأول أشار قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٖ﴾ [الرعد: ٧]، أي: داعٍ، وإلى سائر الهدايات أشار بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦].

وكل هداية ذكر اللَّه ﷻ أنه منع الظالمين منها فهي الهداية الثالثة، وهي

التوفيق الذي يختص به المهتدون، والرابعة التي هي الثواب في الآخرة وإدخال الجنة.

[● بيان لوازم الهداية:]

ولما كانت الهداية والتعليم يقتضي شيئين:

تعريفًا من المُعَرِّف، وتعريفًا من المُعَرَّف، وبهما تتم الهداية والتعليم، فإنه متى حصل البَذْل من الهادي والمعلِّم، ولم يحصل القبول صَحّ أن يقال: لم يَهْدِ ولم يُعَلِّم؛ اعتبارًا بعَدَم القبول، وصحّ أن يقال: هدى وعَلَّم، اعتبارًا ببذله، فإذا كان كذلك صحّ أن يقال: إن اللَّه لم يهد الفاسقين من حيث إنه لم يحصل القبول الذي هو تمام الهداية والتعليم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وقوله: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فهم الذين قبلوا هُداه واهتدوا به، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨]...

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، فإن الاهتداء ههنا يتناول وجوه الاهتداء من طلب الهداية ومن الاقتداء ومن تحرّيها، وقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، فمعناه: ثم أدام طلب الهداية ولم يَفْتَرْ عن تحرّيه ولم يرجع إلى المعصية، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧]، أي: الذين تحرَّوا هدايته وقبلوها وعَمِلُوا بها». اهـ

● **بيان أن أهل الإيمان أهدى الناس قلوبًا وعلاقته بالقضاء والقدر:**

قال اللَّه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

قال ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٨٨):

«قال ابن عباس: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بأمر اللَّه، يعني: عن قدره ومشيئته، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء اللَّه وقدره، فصَبَرَ واحتسب واستسلم لقضاء اللَّه، هدى اللَّه قلبه، وعوَّضه عمّا فاته من الدنيا هُدًى في قلبه، ويقينًا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أُخذ منه أو خيرًا منه.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وفي الحديث الذي رواه مسلم [(٢١٩٩)]: «**عجبًا لأمر المؤمن، لا يقضي اللَّه له قضاءً إلا كان خيرًا له، إن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحدٍ إلّا للمؤمن**». اهـ

وقال السعدي في «تفسيره» (ص٨٦٧):

«هذا ما يتعلق بقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ في مقام المصائب، وأمّا ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظ، فإن اللَّه أخبر أن كل من آمن؛ أي: الإيمان المأمور به من الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان، من القيام بلوازمه وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية اللَّه له في أحواله وأقواله وأفعاله، وفي علمه وعمله.

وهذا أفضل جزاء يعطيه اللَّه لأهل الإيمان كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وأصل الثبات: ثبات القلب، وصبره، ويقينه عند ورود كل فتنة، فأهل الإيمان أهدى الناس قلوبًا وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان». اهـ

● **بيان أسباب الهداية وأن مرجعها إلى عموم طاعة اللَّه ورسوله ﷺ:**

(١) قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال أبو عبد اللَّه القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٢٧٤-٢٧٥):

«قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ قال ابن عطية: فهي قبل الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام في دين اللَّه وطلب مرضاته.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الآية في العباد.

وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون.

ونزع بعض العلماء إلى قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا؛ ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علمًا لا تقوم به أبداننا؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾.

● وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفّار فقط، بل هو: نصر الدين، والردّ على المبطلين، وقمع الظالمين، وعُظْمُهُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة اللَّه وهو الجهاد الأكبر.

وقال الضحاك: معنى الآية: والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينّهم سبل الثبات على الإيمان، **مثل السنة في الدنيا** كمثل الجنة في العقبى، من دخل الجنّة في العقبى سَلِمَ، كذلك من لزم السنة في الدنيا سلم.

وقال عبد اللَّه بن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينّهم سبل ثوابنا.

[قال القرطبي:] وهذا يتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال.

ونحوه قول عبد اللَّه بن الزبير قال: تقول الحكمة: من طلبني فلم يجدني فليطلبني في موضعين: أن يعمل بأحسن ما يعلمه، ويجتنب أسوأ ما يعلمه.

وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديم وتأخير؛ أي: الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا.

قوله: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ أي: طريق الجنَّة، قاله السدّي.

وقال النقّاش: يوفّقهم لدين الحق.

وقال يوسف بن أسباط: المعنى: لنخلصنّ نياتهم وصدقاتهم وصلواتهم وصيامهم.

قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وهو سبحانه معهم بالنّصرة والمعونة والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة فبين المعنيين بَوْنٌ». اهـ

قلت: وهذه الآية التي قدّمْتُ كلام المفسرين في شرحها من أجود ما يكون في الفقه والفهم والمعنى والإدراك والتصور الصحيح، وللَّه الحمد والمنّة سبحانه، فهذا هو التيسير لليسرى والهداية كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

(٢) أما الآية الثانية تحت هذا العنوان، فهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ [يونس: ٩].

قال القرطبي في «جامعه» (٨/ ١٨٥):

«أي: يزيدهم هداية، كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧]، وقال أبو

رَوْق: يهديهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة.

وقال ابن عطية: ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ يثيبهم ويجزيهم.

وقال مجاهد: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ بالنور على الصراط إلى الجنة، ويجعل لهم نورًا يمشون به.

وقال ابن جريج: يجعل عملهم هاديًا لهم.

وقال الحسن: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ يرحمهم». اهـ

(٣) قلت: ومن قول الحسن الأخير هذا، زدت آية ثالثة في هذا السياق وهو قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

قلت: ها أنتم ترون أني أكثر من نقولات الشيخ السعدي رحمه اللَّه تعالى، لما في جودة علمه بفهم كتاب اللَّه، وذلك من خلال ما يجمعه في الآيات من حسن الإلمام بالمعنى الكلي الشامل والمعلل بمراد اللَّه ورسوله، والإدراك للقاعدة الكلية: «**العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**»، وهذا من أهم الأمور في التفسير، مع القلّة في الألفاظ واليسْر في المعنى، **فقال** رَحِمَهُ اللَّهُ **في «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٧٢٠) وهو مجلد واحد كبير وضخم**:

«هذه مقابلة بين العامل بطاعة اللَّه وغيره، وبين العالم والجاهل، وأن هذا من الأمور التي تقرر في العقول تبيانُها، وعلم علمًا يقينًا تفاوتها، فليس المُعرض عن طاعة ربّه المتَّبع لهواه، كمن هو قانت؛ أي: مطيع للَّه بأفضل العبادات وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهي أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة، على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء رحمة اللَّه، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ ربهم ويعلمون دينه الشرعي ودينه الجزائي وما له في ذلك

من الأسرار والحكم ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ شيئًا من ذلك؟ لا يستوي هؤلاء وهؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار والضياء والظلام والماء والنار.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ إذا ذكروا ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: أهل العقول الزكية الذكية، فهم الذي يؤثرون العلم على الجهل، وطاعة اللَّه على مخالفته؛ لأن لهم عقولًا ترشدهم للنظر في العواقب بخلاف من لا لُبّ له ولا عقل، فإنه يتخذ إلهه هواه». اهـ

• **وأختم هذه الرسالة بشرح قوله تعالى**: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

قال السعدي في «تفسيره» (ص١٨٥):

«ثم رتّب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهي أربعة أمور:

أحدها: الخيرية في قوله: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ﴾ أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أمروا بها، أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار؛ لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

الثاني: حصول التثبيت والثبات وزيادته، فإن اللَّه يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان الذي هو القيام بما وعظوا به، فيثبتهم في الحياة الدنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات يوفّقون به لفعل الأوامر وترك الزواجر، التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب التي يكرهها العبد، فيوفّق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو الرضا أو للشكر، فينزل عليه معونة من اللَّه للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين عند الموت وفي القبر.

وأيضًا، فإن العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرّن على الأوامر الشرعية حتى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة على الطاعات.

الثالث: قوله: ﴿وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ أي: في العاجل والآجل،

الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الرابع: الهداية إلى الصراط المستقيم، وهذا عموم بعد خصوص؛ لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحق ومحبته وإيثاره والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هُدي إلى صراط مستقم فقد وُفّق لكل خير، واندفع عنه كل شيء وضيْر». اهـ

قلت: قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾؟! [الكهف: ٥٥]، وقال سبحانه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

واللَّه يقول الحق وهو يهدي السبيل، وصلى اللَّه وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد للَّه رب العالمين.

بلَّغه

ابن الكيَّال